المحاضرة12: الرواية العربية الحديثة

تُعد الرّواية العربية في العصر الحديث، من أهمّ الأجناس الأدبية التي استطاعت أن تواكب التّحولات الكبرى، التي عرفها المجتمع العربي على المستويات الفكرية والاجتماعية والسياسيّة، وقد نشأت الرّواية العربيّة الحديثة في سياق التفاعل مع الثقافة الغربية، ثمّ تطورّت تدريجيّا حتى أصبحت فنا قائما بذاته، له خصائصه الجماليّة وتقنياته السّردية المتميّزة، ومن ثمّ فإنّ دراسة الرّواية العربية الحديثة لا تقتصر على تتبع نشأتها التاريخيّة بل تمتدّ إلى فهم مراحل تطوّرها، التّعرّف على أهم روادها، وكذا السّمات الفنّية التي طبعت مسارها، وهذا ما سنحاول الكشف عنه في محاضرتنا هذه من خلال الإجابة على التساؤلات الآتية: ما مفهوم الرّواية؟ كيف نشأت الرواية العربية الحديثة؟ وما العوامل التي أسهمت في تطورها؟ وما هي خصائصها الفنّية التي ميّزتها عبر مراحلها المختلفة؟ ومن هم أبرز روّادها؟

1- مفهوم الرّواية:

الرواية جنس أدبي يصعب تحديد تعريفه، لأنّه فنّ شامل أو« كلية شاملة موضوعية أو ذاتية، تستعير معمارها من بنية المجتمع، وتفسح مكانا لتتعايش فيه الأنواع والأساليب كما يتضمن المجتمع الجماعات والطبقات المتعارضة» فمن خلال هذا التعريف يتّضح لنا أن للرّواية مميّزات كلّية وشمولية من حيث المواضيع التي تتناولها حول الفرد أو المجتمع أو ظاهرة ما بشكل عامّ.

وورد في معجم المصطلحات الأدبيّة أنّ الرّواية هي «سرد قصصي نثري طويل يصور شخصيات فردية من خلال سلسلة من الأحداث والأفعال والمشاهد والرواية شكل أدبي جديد لم تعرفه العصور الكلاسيكية والوسطى، نشأ مع البواكير الأولى لظهور الطبقة البرجوازية وما صحبها من تحرر الفرد...». ربط هذا التعريف ظهور فنّ الرّواية، بفترة نشوء الطبقة البرجوازية، التّي نادت بحريّة الفرد، كما ذكر خصوصيّة الطول الذّي يميّزها، فبالرغم من أنّ الرّواية ليس لها شكل محدود متّفق عليه، إلاّ أنّها تمتلك بدايةً وعرضًا ونهايةً، مثلها مثل باقي الأجناس الأدبيّة الأخرى.

إنّ الرّواية شكل «من أشكال التواصل القائم-وجوبا-على ثنائية الباث والمستقبل» ذلك أنّها جنس أدبيّ يعتمد السرد والنثر، ويقوم على مجموعة من العناصر، منها الرّاوي والمروي له (المتلقي)، اللذان تقوم بينهما وظيفة التواصل، بالإضافة إلى الشخصيات والأحداث، الزمان والمكان، هي إذن «نقل الراوي لحديث محكي تحت شكل أدبي يرتدي أردية لغوية تنهض على جملة من الأشكال والأصول كاللغة والشخصيات والزمان والمكان والحدث تربط بينها طائفة من التقنيات كالسرد والوصف والحبكة والصراع وهي سيرة تشبه التركيب

بالقياس إلى المصور السينمائي بحيث تظهر هذه الشخصيات من أجل أن تتصارع طورا وتتحاب طورا آخر لينتهي بها النص إلى نهاية مرسومة بدقة متناهية وعناية شديدة»، فالرواية فن أدبيّ، هي قصة طويلة تعالج مجموعة من القضايا، يروي فيها الكاتب أحداثا وقعت في زمن ما، تكون مبنيّة وفق مجموعة متعدّدة ومتنوّعة من الشخصيات.

يقول" روجر آلن" في تعريفه للرواية: «هي نمط أدبي دائم التحوّل والتبدّل، يتسم بالقلق بحيث لا يستقر على حال»، ويتضح لنا من خلال هذا التعريف أن الرواية تتسم بالحركية الدائمة. وهذه ميزة أخرى تجعلها تختلف وتنفرد عن باقي الأنواع الأدبية الأخرى، إذا ما قارناها بها. تختلف الرواية عن الملحمة، في كونها عبارة عن سرد بلغة نثرية، أما الملحمة فهي سرد بلغة شعرية، وتختلف عن القصة القصيرة في طولها وشخصياتها المحدودة، وتتميّز بخيالها عن السيرة الذاتية التي فيها يسرد الكاتب أحداث حياته الشخصية، وعن المسرحية باعتبارها تمثيلا لوقائع قصة قصيرة، عن طريق الاستعانة بمجموعة من الممثلين، وأهم ما يميّزها "الحوار الخارجي".

تعتبر اللغة الأداة الأساسية في العمل السردي، وتساهم في إعطائه بلاغته وجماليته، كما «لا نجد وسيلة للاتصال أنجع من اللغة» لتحقيق عملية التواصل. إنّ «اللغة هي التفكير، وهي التّخيّل بل لعلّها المعرفة نفسها، بل هي الحياة نفسها. إذ لا يعقل أن يفكّر الإنسان خارج إطار اللغة، فهو لا يفكر إذن إلاّ داخلها أو بواسطتها...والإنسان دون لغة يستحيل إلى لا كائن، إلى لا شيء»، تتّضح لنا من خلال هذا التعريف العلاقة بين اللغة والفكر، فلا وجود للّغة دون فكر، ولا تفكير بمعزل عن اللّغة، فهما وجهان لعملة واحدة. وبالتّالي علاقة الإنسان باللغة علاقة ضرورية، مثل علاقتها بالفكر، فالإنسان بدون لغة يتحوّل إلى عدم، لا وجود له، وهذا ما نجده في الرّواية كونها نسيج لغويّ تتحاور فيه الشّخصيات.

يسعى الروائي جاهدا لاستثمار طاقاته التعبيرية من أجل تثمين، وتحقيق التواصل، وواقعية النص السّردي، كلّ هذا من خلال الاشتغال على اللّغة لأنها «المعيار الأساسي المعوّل عليه وذلك لما تحمله من طاقات وإمكانات، فهي التي تبعث على الإدهاش أو عدمه، أو الغرابة أو الوضوح...فالمادة الأساسية التي تشكّل الإغراء ليس الموضوع الذي تتحدّث عنه لغة النّص فقط، بل اللّغة نفسها». لأن الراوي يعتمد في إبداعاته الروائيّة على تنوّع لغة الكلام الذي يستمدّه من المحيط الاجتماعيّ بكلّ اختلافاته.

2- الرواية العربية الحديثة بين المشرق والمغرب:

لم تنشأ الرّواية العربية دفعة واحدة، بل مرّت بعدّة مقدّمات مهّدت لظهورها مثل: الحكايات الشعبيّة، والمقامات، والسير الذاتيّة، والتّرجمات عن الآداب الأجنبيّة، ومع بداية النهضة العربيّة في القرن التاسع عشر بدأ هذا الفنّ يتبلور شيئا فشيئا متأثّرا بالترجمة، والتعليم الحديث، والصّحافة إذ تعدّ رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل من العلامات البارزة في البدايات الأولى للرّواية العربيّة الواقعيّة.

تشير مرحلة ازدهار الرّواية العربية إلى تلك الفترة التي بلغت فيها الكتابة الرّوائيّة درجة من النضج الفنّي والفكري، بحيث انتقلت من مجرد محاكاة بسيطة للواقع إلى بناء عالم سردي أكثر تركيبا وعمقا، بإمكانه استيعاب التّحولاّت الاجتماعيّة والسّياسيّة والثّقافية التي عرفها المجتمع العربي في العصر الحديث، وقد برز في هذه المرحلة عددا مهماّ من الرّواد الذين أسهموا في تثبيت أركان الفنّ الرّوائي، وتطوير تقنياته، وفي مقدّمتهم "نجيب محفوظ" الذي يعدّ من الأسماء المُؤسِّسة لمرحلة النضج الرّوائي، إلى جانب "الطّيب الصالح" و "غسّان كنفاني" وغيرهما من كتّاب الذين وسّعوا أفق الرّواية العربيّة وجعلوها أداة للتعبير عن قضايا الإنسان العربي وهمومه. والتالي يمكن تقسيم تطوّر الرّواية العربية الحديثة إلى خمسِ مراحل أساسيّة، كالآتي:

أ- مرحلة النشأة والتجريب: تمثّل هذه المرحلة البدايات الأولى للفنّ الرّوائي العربي، وكانت أقرب إلى المحاولات التأسيسيّة التي مزجت بين السّرد، والوعظ، والتّاريخ، والتّرجمة. ومن أبرز روّادها: محمد حسين هيكل، وجرجي زيدان، وفرح أنطوان، ومحمد تيمور، ويحي حقّي...

ب-مرحلة التأسيس الفنّي: تمثّل هذه المرحلة انتقال الرّواية من مجرد إرهاصات ومحاولات أولى إلى بناء فنّي أكثر نضجا من حيث الحبكة، وتطوّر الشخصيات، واللّغة السّردية. من أبرز رواد هذه المرحلة: طه حسين، وتوفيق الحكيم، ونجيب محفوظ في أعماله الأولى، وإحسان عبد القدوس...

ت-مرحلة النضج والازدهار: وفيها بلغت الرّواية العربيّ أوجّ تطورها الفنّي والفكري، واتّسعت موضوعاتها لتشمل قضابا المجتمع، والهويّة والحريّة، والاغتراب، والصّراع الطبقي. ومن روّدها: نجيب محفوظ، والطّيب صالح، وغسّان كنفاني، وعبد الرحمن منيف، ويوسف إدريس، وصنع الله إبراهيم...

ث-مرحلة التجديد والتّنوع: اتّسمت هذه المرحلة بتعدّد الأساليب الفنّية، وظهور تقنيات سرديّة جديدة مثل تعدّد الأصوات، وتكسير الزّمن، والكتابة الرّمزيّة، والتجريب في البنية اللّغوية. من أرز روّادها:

أحلام مستغانمي، وإبراهيم الكوني، وواسيني الأعرج، وعلاء الاسواني، وليلى العثمان، وإلياس خوري...

ج- المرحلة المعاصرة: تتميّز هذه المرحلة باتّساع دائرة الموضوعات وارتباط الرّواية بقضايا الإنسان المعاصر، والذّاكرة، والمنفى، والتّحولات السّياسيّة والاجتماعيّة، مع حضور واضح للتقنيات الحديثة في السردّ، من روّادها: إلياس الخوري، وأحلام مستغانمي، وواسيني الأعرج وربيع جابر...

3-أهمّ سمات الرّواية العربية الحديثة:

تتميّز الرّواية العربيّة الحديثة بعدّة خصائص أهمّها:

- الارتباط بالواقع إذ أصبحت الرّواية العربيّة الحديثة تعكس قضايا المجتمع العربي وتحولاّته.
- تطوّر البناء الفنّي من خلال العناية بالحبكة والشّخصيّات والمفارقة الزمنية والمكانيّة.
- تعدّد الأصوات ممّا يتيح تقديم وجهات نظر متعدّدة داخل النّص الرّوائي.
- الانفتاح على القضايا الفكرية والسّياسيّة كالحريّة والهويّة والاغتراب والاستبداد.
- التجريب الفنّي سواء على مستوى اللّغة أو البنية، أو في طريقة السّرد.

4- روّاد الرّواية العربيّة الحديثة:

يمكن القول بأنّ أبرز الأسماء التي أسهمت في ترسيخ هذا الفنّ هم:

- محمد حسين هيكل بوصفه رائد الرّواية العربيّة الحديثة.
- جرجي زيدان الذي أسهم في كتابة الرّواية التاريخيّة
- نجيب محفوظ الذي يمثّل قمّة النضج الرّوائي العربي.
- الطّيب صالح الذي تعمّق في البعد الإنساني والثّقافي في الرّواية.
- غسّان كنفاني بجعله الرّواية أداة للتعبير عن القضيّة الفلسطينيّة.
- عبد الرحمن منيف قدّم الرّواية ذات البعد الاجتماعي والسّياسي العميق.

5- قضايا الرّواية العربيّ الحديثة:

- الهويّة والانتماء: تعدّ الهوّية من السّمات الإنسانيّة التّي تميّزه عن غيره من الكائنات الحيّة، بعناصرها المتعدّدة، وتبقى اللّغة أبرز عنصر في تشكّل الهويّة أمّة من الأمم. كلاهما مرتبط

بالعقل موجودة بوجود الإنسان، تشملان أجزاءً متداخلة لا يمكن الفصل بينهما غالبا ما تطرح إشكالية اللّغة والفكر، أو اللّغة في علاقتها مع الوجود، وقد تطرّق لحلّ هذا الموضوع العديد من العلماء والفلاسفة، ليحسم هذا الجدال بالإقرار على أن اللّغة والفكر هما وجهان لعملة واحدة. إذ أنّ اللغة هي التفكير، والتخيّل، بل قد تكون المعرفة نفسها، إذ لا يمكن أن يفكّر الانسان خارج إطار اللغة، كونها الوحيدة التي تتيح له فرصة التّعبير عن أفكاره فيبلّغ ما في داخله، ويكشف عماّ يجول في قلبه من عواطف وأحاسيس ولا يَخفى لنا أنّ مسار اللّغة يتغيّر بتغيّر الظروف وتماشيا مع تطور الحركة الفكريّة، ومن أمثلة ذلك: رواية معارضة الغريب لكمال داود

- الاحتلال والصراع الوطني
- الحريّة والاستبداد
- المرأة والتّحولات الاجتماعية
- الفقر والطبقيّة
- الاغتراب والمنفى

إنّ الرّواية العربيّة الحديثة لم تكن مجرد تقليد للرّواية الغربيّة، بل أصبحت فنّا عربيّا أصيلا استطاع أن يعبّر عن الواقع المحلّي، وأن يطوّر أدواته الجماليّة والفكريّة بفضل جهود الرّواد الذين أسهموا في تأسيسه، وتوسيعه وتجديده، كم استطاعوا أن يجعلوا من الرّواية فنّا تعبيريّا يصوّر الإنسان العربي بمختلف أبعاده، ويجسّد تحوّلات مجتمعه، كاشفا عن تساؤلاته الوجودية والفكريّة، ومن ثمّة فإنّ دراسة هذا الفنّ لا تقتصر على تتبعّ تاريخه بل تمتدّ إلى فهم دوره في تشكيل الوعي الثّقافي العربي الحديث.

مراجع المحاضرة:

* عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، (د.ط)، عالم المعرفة، الكويت، 1998.
* روجر آلن، الرواية العربية، تر: إبراهيم المنيف، (د.ط)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1997
* صالح مفقودة، أبحاث في الرواية، منشورات مخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة.
* فتحي إبراهيم، معجم المصطلحات الأدبية، (د.ط)، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، تونس، 1986.
* الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، (د.ط)، دار الجنوب للنشر، تونس، 2000.